اختراق الدفاعات الألمانية

في العلمين وبدء مرحلة المطاردة

الفصل السادس عشر

obeikandl.com

obeikandl.com

كانت القوات البريطانية خلال معركة العلمين لديها التفوق الساحق على قوات المحور في الدبابات والمدفعية، وكانت نسبة تفوقها تبلغ (2 إلى 1) كما كان لدى السلاح الجوي البريطاني السيطرة الجوية التامة على ميدان المعركة، هذا وقد جرت معركة العلمين في ثلاث مراحل رئيسية هي :

أولاً: المرحلة الأولى:

بدأت المرحلة الأولى منها في الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين مساء يوم 23 أكتوبر بقصف عنيف، ومركَّز من المدفعية البريطانية على مواقع مدفعية المحور لمدة 20 دقيقة من 800 مدفع من مختلف العيارات، مما أدى إلى حدوث خسائر كبيرة في مدفعية المحور.

وفي القطاع الشمالي وخلال الليل تمكَّنت تشكيلات الفيلق 30 من تحقيق الواجب المكلَّف به الفيلق قبيل الفجر، وهو فتح الثغرتين المحددتين في حقول ألغام المحور، وحاول لواء مدرع من الفرقة النيوزيلندية التقدم صوب دفاعات المحور، ولكن الستارة الألمانية المضادة للدبابات على تَبَّة المطرية أوقفت تقدُّمه بخسائر فادحة، وعندما حاول الفيلق العاشر المدرع عبور الثغرتين في حقول الألغام للوصول قبل الفجر إلى الأهداف المخصَّصة له في دفاعات المحور أُرْغمَت فرقتاه المدرعتان (الأولى والعاشرة) على التوقف إزاء شدة تأثير المدفعية الألمانية والمدفعية المضادة للدبابات، وفي القطاع الجنوبي كان واجب الفيلق 13 فتح ثغرة واسعة في حقلي ألغام المحور (حقلي يناير وفبراير)، وقد نجحت وحدات من الفرقة 44 المشاة بمعاونة المدفعية في فتح الثغرة المحددة في حقل يناير (الشرقي)، وواصلت عملها بقية الليل في فتح الثغرة في حقل الألغام الذي واجهها اعتقاداً منها أنه حقل فبراير (الغربي)، ولكنها اكتشفت عند طلوع الفجر أنها على بعد 600 ياردة من حقل فبراير، وأن قوات المحور قد بَثَّت حقلاً من الألغام المبعثرة بين

الحقلين الأساسين يناير وفبراير، وبذا أصبحت القوات البريطانية محصورة بين حقلين من الألغام من الأمام والخلف، مما ألحق بها خسائر جسيمة.

ثانيًا: المرحلة الثانية:

مرحلة القتال المتلاحم (من 24 أكتوبر إلى أول نوفمبر) يمكن تقسيم هذه المرحلة إلى ثلاث فترات كما يلي:

§ **الفترة الأولى (من 24 إلى 26 أكتوبر)**: انتهى الجزء الأول من المرحلة الثانية بتوقف الفيلق 30 تمامًا، وفقد الهجوم قوته الدافعة، ولم يحرز هذا الفيلق أي تقدُّم ملموس منذ 24 أكتوبر فيما عدا هجوم الفرقة 9 الأسترالية في الشمال برغم أن ذلك كان خارج الخطة الأصلية، وفي الوقت نفسه فشل الفيلق 10 المدرع (القوة الضاربة) في الوصول إلى الأرض المكشوفة خلف المواقع الدفاعية الألمانية لستر عمليات الفيلق 30، وعلى العكس اتضح أنه مازال أمام الفيلق 10 حقل ألغام آخر (حقل فبراير).

وكان السبب الرئيسي لهذا الفشل يرجع إلى أن القيادة الألمانية قامت قبيل الهجوم البريطاني بمناورة لم تَفطن لها قيادة الجيش الثامن، فقد أمرت بسحب قواتها الأمامية من مواقعها الدفاعية إلى مواقع أخرى في الخلف تاركة قوات ضعيفة من المشاة في المواقع الأمامية، ولذا وجدت قوات الفيلق 30 نفسها في نهاية المرحلة الأولى تواجه مواقع دفاعية للمحور تسترها حقول ألغام عميقة أخرى، وتدعمها مدفعية قوية مضادة للدبابات، وعلى ذلك لم تتح الفرصة لقوات الفيلق 10 المدرع للخروج إلى الأرض المكشوفة، وأصبحت قدرتها على المناورة محدودة، وتكبَّدت بسبب هذا الوضع خسائر فادحة.

§ **الفترة الثانية (من 27 إلى 28 أكتوبر)**: اضطر مونتجومري إلى التدخُّل للقيام بعمل حاسم وسريع لإنقاذ الموقف حتى لا يخسر المعركة، خاصة بعد عودة روميل من ألمانيا، وتولِّيه قيادة الفيلق الأفريقي منذ يوم 26 أكتوبر (نهاية الفترة الأولى من

المرحلة الثانية)، وكانت خطة القائد البريطاني الجديدة تهدف إلى محاولة اختراق جبهة المحور الدفاعية عند أقصى الطرف الشمالي للخط الدفاعي (المجاور للبحر)، وقد شجَّعه على تحويل محور الهجوم، نظرًا للنجاح الذي صادفته الفرقة 9 الأسترالية في عملياتها ليلة 25/ 26 أكتوبر، وتبعًا لذلك أمر مونتجومري بإجراء عملية إعادة التجميع لقواته يوم 28 أكتوبر كما يلي:

1. تصبح عمليات الفيلق 13 في القطاع الجنوبي عمليات دفاعية بحتة بهدف تثبيت العدو المواجه لهذا القطاع، ولذا يُسحَب من تحت قيادة الفيلق لينضم إلى القطاع الشمالي الفيلق 10 المدرع، والفرقة 7 المدرعة، وثلاثة ألوية مشاة، ويحل اللواء 152 مشاة من الفرقة 51 مشاة محل اللواء 20 أسترالي في مواقعه الدفاعية، وبذا تصبح الفرقة 9 الأسترالية بأكملها على استعداد للهجوم.

2. تقوم الفرقة 9 الأسترالية بالهجوم ليلة 28/ 29 أكتوبر بهدف تطويق القوات الألمانية المواجهة للقطاع الشمالي، وعقب نجاح الهجوم يدفع الفيلق 30 قوته المدرعة الضاربة في اتجاه سيدي عبد الرحمن، وخلال يومي 27 و28 أكتوبر قامت الفرقتان الألمانيتان 15 و21 البانزر بهجوم مضاد عنيف على تَبَّة كيدني في القطاع الشمالي، ولكن الفرقة 1 المدرعة (من الفيلق 10 المدرع) صدَّته بنجاح، وحاولت فرقتا البانزر التجمَّع مرة ثانية استعدادًا لمعاودة الهجوم، ولكن الهجمات الجوية البريطانية العنيفة أحبطت استعداد الفرقتين الألمانيتين المدرعتين.

§ **الفترة الثالثة (من 29 أكتوبر إلى أول نوفمبر):**

1. بدأ هجوم الفرقة 9 الأسترالية ليلة 28/ 29 أكتوبر في اتجاه الشمال بهدف القضاء على النتوء الألماني قرب شاطئ البحر، وقد نجح الهجوم في إحداث نتوء ضيق يمتد حتى الطريق الساحلي ما بين تل العيصي وسيدي عبد الرحمن.
2. خلال يوم 29 أكتوبر تعرَّضت الفرقة الأسترالية لهجمات شديدة العنف، ولكنها

تمكَّنت من الاحتفاظ بمواقعها الدفاعية، وفي الوقت نفسه تحرَّكت الفرقة الألمانية 90 الخفيفة إلى الشاطئ لمواجهة التهديد البريطاني الجديد.

3. في ليلة 30/ 31 أكتوبر استأنف الأستراليون هجومهم نحو الشمال في اتجاه البحر، ونجح أحد ألوية الفرقة 9 الأسترالية في عبور الطريق الساحلي واندفع إلى شاطئ البحر مطوِّقًا بعض وحدات الفرقة 164 المشاة الألمانية، وخلال يوم 31 أكتوبر قام الألمان بهجمات مضادة عنيفة، مما أجبر الأستراليين على التراجع حتى الخط الحديدي، وبذلك تمكَّنت معظم القوات الألمانية من الإفلات، والانسحاب غربًا بعد تكبُّدها خسائر جسيمة.

4. خلال يوم أول نوفمبر أدرك روميل أن الهجوم الرئيسي البريطاني سيوجَّه عند أقصى الطرف الشمالي بجوار البحر، وعلى ذلك أمر بتحرك الفرقة 21 البانزر من منطقة تل العقاقير لتنضم إلى الفرقة 90 الخفيفة قرب الشاطئ، وبذلك قذف روميل آخر احتياطيه في المعركة.

ثالثا: المرحلة الثالثة:

(الانطلاق من 2 إلى 4 نوفمبر) قرَّر مونتجومري ضرورة أن يشنَّ هجومه الحاسم لاختراق دفاعات المحور، والنفاذ إلى الأرض المكشوفة بعد أن استمر القتال أكثر من أسبوع دون التوصل إلى نتيجة حاسمة، وعندما علم مونتجومري بتحرك الفرقة 21 البانزر والفرقة الخفيفة 90 الألمانيتين شمالاً قرب شاطئ البحر لمواجهة هجومه الرئيسي في اتجاه الغرب وافق على تغيير اتجاه هجومه ـ بنصيحة من رئيس أركانه ـ ليكون محور الهجوم من الجنوب إلى الشمال، وتبعًا لذلك أصدر أمره القتالي لتقوم الفرقة النيوزيلندية بشن هجومها من تَبَّة كيدني في اتجاه الشمال مباشرة (في اتجاه البحر) على أن يتم تعزيزها بلواءين مشاة ولواءين مدرعين، وأن يجري الهجوم ليلاً، وعلى أن تقوم قوته الضاربة المشكَّلة من الفيلق العاشر المدرع والفرقة 7 المدرعة فور فتح الثغرة في دفاعات العدو بالاندفاع منها في اتجاه الغرب للقضاء على قوات المحور قضاءً تامًّا، وكانت أوامر مونتجومري تقضي بمواصلة الهجوم دون توقُّف مهما كان الثمن، وفي

حالة توقُّف المشاة عن التقدُّم كان على القوات المدرعة شق طريقها لاختراق دفاعات المحور مهما بلغت درجة خسائرها.

وقد بدأ هجوم الفرقة النيوزيلندية في الساعة الواحدة صباح يوم 2 نوفمبر بنجاح بمعاونة أحد عشر آلايًا من مدفعية الميدان، غير أن اللواء 9 المدرع اضطر للتقدم في المرحلة النهائية دون معاونة المدفعية، (بسبب فقد ضابط المراقبة الأمامية طريقه أثناء الليل)، ولذا عندما اصطدم هذا اللواء عند وصوله إلى شرق مدق سيدي عبد الرحمن بستارة ألمانية من المدافع المضادة للدبابات (من عيار 88مم و50مم) كانت نتيجة الاصطدام مروِّعة، فقد خسر اللواء 9 المدرع في هذه المعركة حوالي 100 دبابة؛ أي ثلاثة أرباع عدد دباباته، ولذلك صدرت الأوامر بإرسال الفرقة 1 مدرعة (من الفيلق العاشر المدرع) لنجدة هذا اللواء، فاشتبكت الفرقة مع القوات المدرعة الألمانية حول تل العقاقير في معركة شديدة العنف تكبَّد فيها الطرفان خسائر جسيمة، وفقدت فيها المدرعات الألمانية حوالي 360 دبابة، مما جعل بقاء قوات المحور في مواقعها الدفاعية بخط العلمين أمرًا يكاد يكون مستحيلاً، خاصة بعد أن نجح آلاي السيارات المدرعة البريطانية (الرويالز) يوم 2 نوفمبر في اجتياز رأس الكوبري، والنفاذ إلى الأرض المكشوفة، ومواصلة التقدم في اتجاه الضبعة، وتبعه يوم 3 نوفمبر آلاي آخر من السيارات المدرعة (جنوب أفريقيا)، حيث انضم إليه بهدف الإغارة على خط مواصلات قوات المحور، وفي ليلة 2/ 3 نوفمبر، وإزاء التطورات الخطيرة الأخيرة في المعركة التي انتهت باختراق القوات البريطانية مواقع الدفاعات الألمانية وبدء مرحلة الانطلاق بدأ روميل في سحب قواته من خط العلمين، وكانت الستارة الألمانية المضادة للدبابات التي أوقفت اللواء 9 المدرع قد صدرت لها الأوامر بالاستماتة في القتال في مكانها مهما بلغت خسائرها؛ كي تتاح الفرصة للقائد الألماني روميل لسحب الجزء الأكبر من قواته غربًا للنجاة من أي تطويق بريطاني، وأدرك مونتجومري مدى خطورة هذه الستارة التي تمنع قيامه بعملية المطاردة لقوات المحور المنسحبة على عجل في اتجاه

الغرب؛ ليتسنىً له اللحاق بها وتحطيمها، ولذلك تم تكليف اللواء 5 الهندي من الفرقة 4 الهندية بالهجوم غربًا حتى مدق سيدي عبد الرحمن لتطويق الستارة الألمانية، والقضاء عليها؛ ليصبح الطريق مفتوحًا أمام القوات البريطانية للقيام بعملية المطاردة، وفي إثر نجاح اللواء الهندي انسحبت الستارة الألمانية المضادة للدبابات من مكانها، واتخذت موقعًا جديداً في مواجهة الجنوب الشرقي لحماية الطريق الساحلي الذي كان مكتظًّا وقتئذ بمئات من الدبابات والعربات المنسحبة غربًا، وعبرت القوات المدرعة البريطانية (الفيلق 10 المدرع، والفرقة السابعة المدرعة) أخيراً مدق سيدي عبد الرحمن، وبدأت مرحلة المطاردة، غير أن تعطيل الستارة الألمانية المضادة للدبابات لهذه القوات يومي 2 و3 نوفمبر أتاح الفرصة لروميل لسحب جميع قواته فيما عدا أربع فرق إيطالية في الجنوب لم تتوافر لها عربات لنقلها، ولذا وقعت جميعها في الأسر.

عودة روميل لتولي القيادة

خلال وجود الفيلد مارشال روميل في مستشفى سمرنج اتصل به الزعيم الألماني هتلر هاتفيًا ظهر يوم 24 أكتوبر، وقال له في انزعاج: "روميل... هناك أنباء سيئة من أفريقيا، والموقف يبدو شديد السواد... هل يمكنك أن تعود إلى قيادتك هناك؟" وبرغم أن روميل لم يكن قد تلقَّى العلاج إلا لمدة ثلاثة أسابيع فقط، وكان لا يزال ضعيفًا، ولا يصلح للعودة إلى الصحراء لكي يتولى القيادة في معركة يائسة فلم يكن أمامه مجال للرفض بعد المحادثة الهاتفية التي أجراها معه هتلر شخصيًا، فضلاً عن أن مشاعره وعواطفه كانت كلها مع جنود فيلقه الأفريقي الذين لا شك أنهم كانوا يفتقدونه بينهم في هذه الظروف الحرجة.

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي غادر روميل المستشفى، واستقل الطائرة للعودة على وجه السرعة إلى مقر قيادة الفيلق الأفريقي، ولكنه توقَّف خلال رحلة العودة في روما، حيث عقد مؤتمراً بالقيادة الجنوبية مع الجنرال الألماني فون رنتلن

للتباحث بشأن إمدادات البترول التي كان روميل يعلم جيداً مدى حاجة قواته الماسة إليها، كما توقَّفت به الطائرة لبعض الوقت في جزيرة كريت، ثم انطلقت به بعد ذلك إلى أحد مطارات الصحراء الغربية المصرية، وفي يوم 26 أكتوبر عاد روميل إلى مقر قيادته التي كان قد غادره منذ شهر إلى ألمانيا للعلاج، وبدأ منذ ذلك الوقت يتولَّى قيادة قوات المحور خلال المرحلة الثانية من معركة العلمين.

وعندما عاد روميل ليتولَّى مهام القيادة كانت معركة العلمين في واقع الأمر قد تمَّت خسارتها بالنسبة للألمان، ولم يكن في إمكانه القيام بأي عمل كبير للتأثير على سير المعركة، فإن الجنرال ستيوم الذي كان يتولى القيادة أثناء غيابه في ألمانيا دفع معظم ما لديه من احتياطي إلى أتون المعركة، ولم يكن هناك مجال أمام روميل لاتخاذ قرارات كبرى، كما كان يفعل فيما مضى لتغيير مجرى الأحداث.

ومما زاد من حرج الموقف أن الجنرال ستيوم الذي كان قد خلف روميل في قيادة الفيلق الأفريقي حدثت له مأساة مفجعة، فلم تمر 24 ساعة على بدء تحضيرات المدفعية البريطانية حتى كان قد تُوفِّيَ بسكتة قلبية، ويبدو أنه قفز من عربته أثناء سيرها ليتيسَّر له الاختفاء خلال هجمة جوية بريطانية دون أن يلاحظه السائق الذي عاد بالعربة دون قائده، وبالبحث عنه وجدوه راقداً على الأرض جثة هامدة.

ولدواعي الإنصاف ينبغي أن تؤكَّد أن الجنرال ستيوم عندما تولَّى القيادة تسلَّم من سلفه الخطة الدفاعية لقوات المحور؛ إذ إن روميل هو الذي سبق له وضعها، وقام بنفسه بإعداد كل التفاصيل عن المواقع الدفاعية في خط العلمين قبل مغادرته أفريقيا متوجهًا إلى ألمانيا، كما أن روميل هو الذي اتبع الأسلوب غير المألوف بالنسبة له من قبل، وهو بعثرة قواته المدرعة وعدم تجميعها في حشد واحد، كما كان أسلوبه في كل معاركه السابقة، فقد وضع الفرقة 15 البانزر في الشمال والفرقة 21 البانزر في الجنوب، كما وزع قوات المشاة الألمانية (بما فيها قوات المظلات) بين التشكيلات الإيطالية في مجموعات

كتائب؛ نظراً لضعف ثقته في المقدرة القتالية للفرق الإيطالية التي كانت تحتل الجانب الأكبر من الخط الدفاعي لقوات المحور كوسيلة لزيادة ثقتها في قدراتها، ولرفع الروح المعنوية في صفوفها.

وليس هناك من شك في أن الحظ قد ساعد الجنرال مونتجومري أثناء الأسابيع الثلاثة الأولى من أكتوبر، والتي تم له خلالها إجراء معظم وسائله الخداعية لإخفاء موعد الهجوم واتجاه مجهوده الرئيسي، وكذا إخفاء مكان قواته المدرعة التي حشدها على مسافة حوالي 80كم خلف الخط الدفاعي، فقد كان روميل طوال ذلك الوقت موجوداً في المستشفى بألمانيا، وبعيداً عن ميدان المعركة، ولم يحضر لتولي القيادة إلا في اليوم الثالث من نشوبها (26 أكتوبر)، وهذا ما دعا الجنرال ألكسندر ـ الفيلد مارشال فيما بعد ـ القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط إلى أن يكتب في مذكراته: "لم يقرر العدو تجميع كل موارده وقواته ضد هجومنا الرئيسي الحقيقي إلا في اليوم الثالث من المعركة"، وهذا الأمر يثير التساؤل: تُرى لو كان روميل موجوداً في أفريقيا خلال شهر أكتوبر هل كان من الممكن خداعه بهذا الشكل؟ وهل كان روميل يعطي لتقارير المخابرات الألمانية التي كانت تؤكد استحالة هجوم الجيش الثامن خلال شهر أكتوبر تلك الأهمية التي أُعطِيَت لها من قبل الجنرال ستيوم الذي خلفه في القيادة؟

وبرغم إدراك روميل بأن المعركة قد تمَّت خسارتها فإنه قام بمحاولة يائسة لاستعادة الموقف عن طريق تجميع فيلقه الألماني المدرَّع الذي كان مشتَّتاً في الشمال والجنوب، وحشده في مواجهة القطاع الشمالي، حيث تركَّز المجهود الرئيسي للهجوم البريطاني؛ تمهيداً لشن هجوم مضاد استهدف منه تدمير ذلك الهجوم وإحباطه.

وفي صراع مع الزمن حشد روميل الفرقة 15 البانزر المنهكة، والتي كانت قد مُنِيَت بخسائر فادحة خلال المعارك التي خاضها في اليومين السابقين، كذا تم له إحضار الفرقة 21 البانزر من الجنوب إلى الشمال بعد رحلة مضنية شاقة، كما أُمرت الفرقة 90 الخفيفة

بالتخلي عن الواجب المكلَّفة به في حراسة الشاطئ، والانضمام إلى الحشد الألماني المدرع.

وكان الهجوم المضاد الذي خطَّط له روميل بعد بضع ساعات فقط من وصوله يعد عملاً خارقًا من حيث المهارة والجرأة، لقد كان روميل منذ ثلاثة أيام فقط يرقد على فراش المرض في مستشفى سمرنج بألمانيا، وها هو ذا يوم 27 أكتوبر يقف في ساحة القتال ليتولى قيادة فيلقه الأفريقي المدرع ـ الذي طالما قاده إلى النصر ـ في أقوى هجوم مضاد تم شنَّه على القوات البريطانية في القطاع الشمالي منذ بدء معركة العلمين، وبرغم تركيز الهجوم على تَبَّة كيدني عند الطرف الغربي للثغرة الشمالية، وبرغم البسالة والجرأة اللتين أظهرتهما قوات الفيلق الألماني بفضل نيران المدفعية الكثيفة التي عاونته وبفضل الهجمات الجوية الكاسحة التي قام بها سلاح الطيران البريطاني الذي كان لديه التفوق الجوي الساحق في سماء المعركة، وخلال يوم 28 أكتوبر حاول روميل تكرار هجومه المضاد، وتجمعت الفرقتان 15 و21 البانزر أمام تَبَّة كيدني مرة أخرى؛ استعداداً للهجوم، ولكن نيران المدفعية البريطانية والهجمات الجوية العنيفة أجبرتا الفرقتين على الانسحاب.

وفي يوم 2 سبتمبر امتنع الفيلق الأفريقي عن الهجوم، فقد أثَّرت ضربات السلاح الجوي وعمليات الإزعاج التي قامت بها الفرقة 7 المدرعة تأثيراً كبيراً على خط إمداد قوات البانزر عبر الثغرات وفي الأرض المفتوحة في الجنوب، وعلى ذلك أمر الجنرال مونتجومري بأن تبدأ عمليات الفرقة النيوزيلندية أثناء ليلة 3/ 4 سبتمبر، وكانت الخطة أن تقوم الفرقة النيوزيلندية بالهجوم على مرحلتين: **الأولى** أثناء ليلة 3/ 4 سبتمبر بغرض الوصول إلى الحافة الشمالية لمنخفض المناصيب، **والثانية** ليلة 5/ 6 سبتمبر بغرض الوصول إلى الحافة الجنوبية للمنخفض، وكان على باقي القوات المدرعة أن تبقى في مواقعها، وتقتصر عملياتها على إرسال الدوريات للمحافظة على الاتصال بقوات

البانزر الألمانية إلا إذا شـرعت الأخـيرة في الانـسحاب، فكـان علـى القـوات البريطانيـة إرهاقها من كل اتجاه دون التورط في قتال جِدِّي.

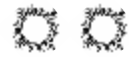

obeikandl.com